حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

مجلة دولية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية والعصر الوسيط

Journal of Medieval and Islamic History

An International Review Interested in Byzantine, Medieval and Islamic History

(JMIH)

ISSN 2090-2883

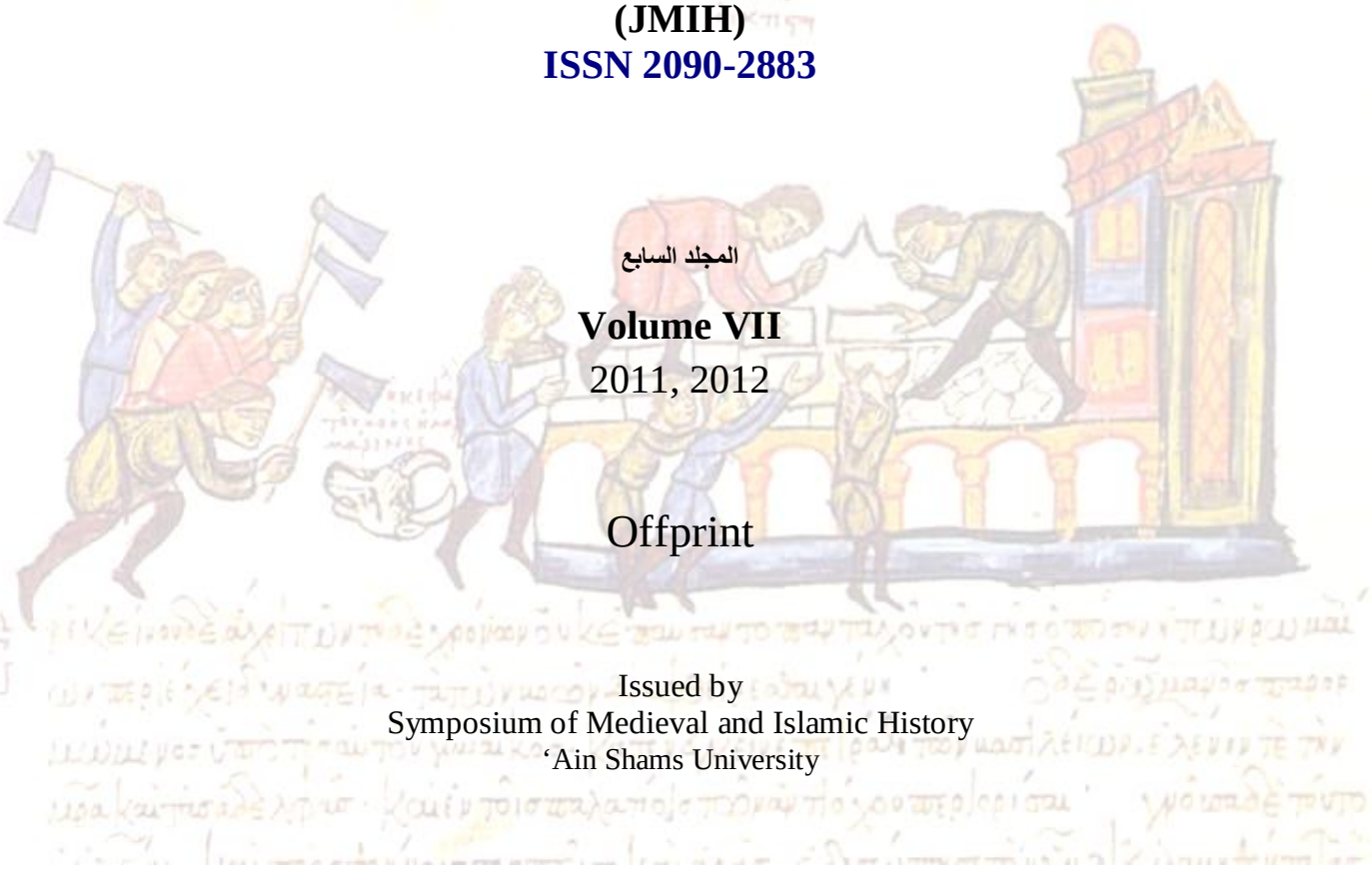

المجلد السابع

Volume VII

2011, 2012

Offprint

Issued by
Symposium of Medieval and Islamic History
'Ain Shams University

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

مجلة دولية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية والعصر الوسيط
يصدرها: سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس

المشرف العـــام: ا. د. اسحـــــق عـــبيـــد

رئيس التحريـــر: ا. د. طـــارق منصـــور

مستشارا المجلة: ا. د. محمـــود إسماعيـــل

ا.د. فتحـــي أبـــو سيـــف

مساعدا التحرير: ا. د. محاسن الوقاد، د. عبد العزيز رمضان

سكرتارية المجلة: د. محمد نصر عبد الرحمن

د. سند أحمد سند

اللجنة العلمية الداخلية:ا.د. زبيدة محمد عطا

ا.د. قاسم عبده قاسم

ا.د. محمود سعيد عمران

ا.د. وسام عبد العزيز فرج

اللجنة العلمية الدولية: ا.د. بيتر فرانكوبان، اوكسفورد، بريطانيا.

ا.د. تاكسيارخس كولياس، أثينا، جمهورية اليونان.

ا.د. جوناثان شيبرد، اوكسفورد، بريطانيا.

ا.د. جوان مونفرر سالا، اسبانيا.

ا.د. سهيل زكار، دمشق، الجمهورية العربية السورية.

ا.د. فاسيليوس خرستيدس، أثينا، جمهورية اليونان.

ا.د. مايكل كوك، برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية.

النشر والتوزيع: دار الفكر العربي، ٩٤ شارع عباس العقاد، مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية. ت : ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٨٤ – ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٧٩٤ فاكس : ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٧٣٥ الموقع الاليكتروني: http://darelfikrelarabi.com

- ترسل المراسلات والبحوث باسم رئيس تحرير المجلة على العنوان التالي: كليـــة الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، جمهورية مصر العربية. الرمز البريـــدي ١١٥٦٦، فـــاكس: ٠٠٢٠٢-٢٦٨٥١٤٣٢ بريد اليكتروني tm_jmih@hotmail.com ، شريطة ألا تكون قـــد سبق نشرها في مكان آخر، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلي IBM ، Word XP or 2003، Windows XP حسب المواصفات التالية:

١ - البحوث المكتوبة باللغة العربية:

- العنوان الرئيس فونت ١٦ Heading Bold، العنوان الفرعي فونت ١٣ أسود.
- الخط Simplified Arabic ، فونت ١٢.
- الهوامش سفلية، فونت ١٠، ترقيم متتالي من قائمة إدراج.
- المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش.
- مواصفات النص ١٢.٥ X ٢٠.٥سم، بدون الترقيم.

٢ - البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

- العنوان الرئيس فونت ١٢ أسود ، العنوان الفرعي فونت ١٢ أسود، الهوامش فونت ١٠.
- الخط Times New Roman ، فونت ١٢.
- المسافة بين السطور single للنص ، exact للهوامش.
- مواصفات النص 12.5 X 20.5 سم بدون الترقيم.
- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن مقاس٣.٥ أو على CD.
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر يونيو من كل عام.
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسي للبحث مباشرة.

شروط النشر:

١. تُقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.
٢. يقدم الباحث نسختين مطبوعتين من بحثه بالإضافة إلى نسخة على الـــ CD.
٣. ينبغي ألا يكون البحث المقدم للنشر قد سبق نشره في دورية من الدوريات المعتمدة.
٤. يرفق الباحث مع بحثه ملخصاً باللغة العربية وآخر باللغة الإنجليزية.

٥. ينبغي ألا يكون البحث المقدم للنشر جزءً من رسالتي الماجستير أو الدكتوراه الخاصة بمؤلف البحث.

٦. أن يتسم العمل المقدم بالأصالة والجدية، وأن يكون موثقاً توثيقاً علمياً، معتمداً على المصادر الأصلية والمراجع المعتمدة.

٧. تحكيم البحوث يكون سرياً، ويقوم به اثنان من المحكمين الدوليين بمعرفة المجلة.

٨. يخطر الباحث بنتيجة التحكيم سواءً بالرفض أم القبول. ويمكن للباحث معرفة أسباب عدم النشر دون الإشارة إلى هوية أو أسماء المحكمين.

٩. بعد أن ينشر الباحث بحثه أو دراسته بالمجلة لا يحق له إعادة نشره في أي مكان آخر إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وبعد حصوله على إذن خطي من إدارة المجلة؛ وإلا سوف يحرم من النشر بالمجلة لمدة خمس سنوات تالية.

١٠. يزود الباحث بخمس مستلات من بحثه وعدد من الإصدار.

١١. على الباحث الالتزام بقواعد الكتابة والتوثيق طبقا لنظام المجلة وكذلك مختصر الدوريات المنشور على موقعها الإليكتروني: http://jmih.zxq.net.

شكر وتقدير*

تتقدم هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط بخالص الشكر والتقدير إلى الأساتذة الأجلاء الذين تكرموا بتحكيم البحوث الواردة في هذا العدد، متمنين لهم دوام التوفيق، وهم:

أ.د. طارق منصور أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب بجامعتي عين شمس (مصر) والطائف (السعودية).

د. عبد العزيز رمضان أستاذ التاريخ الوسيط المشارك، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

أ.د. عبد الله الربيعي أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

أ.د. محاسن الوقاد أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.

أ.د. محمود إسماعيل أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.

أ.د. محمود سعيد عمران أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً.

المشاركون في العدد*

خالد حسين محمود	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.
خلفات مفتاح	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية الآداب، جامعة المسيلة، الجزائر.
عائشة مرشود الحربي	مدرس (أستاذ مساعد) التاريخ الوسيط، جامعة طيبة، المدينة المنورة، السعودية.
لخضر بولطيف	أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة المسيلة، الجزائر.
المتولي السيد تميم	مدرس تاريخ العصور الوسطى (أستاذ مساعد) ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، فرع دمنهور، مصر.
محمد الغضبان	أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة، تونس.
محمد عبد الحميد سعيد	أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – تونس
محي الدين لاغة	أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة، تونس.
منذر الحايك	أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة القلمون، سورية.
نجلاء حسني مبارك	مدرس التاريخ الإسلامي (أستاذ مساعد) ، مصر.
ياسر أحمد نور	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية التربية، جامعة المنصورة، مصر.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً، وكذلك البحوث.

المحتويـات

أولاً: البحوث العربـية

شكر وتقدير..... ز

المشاركون في العدد ..... ط

المحتويات..... ك

تقديم..... م

- **خالد حسين**: الجانب السياسي في حياة الفقيه أبي عمران الفاسي..... ٣

- **خلفات مفتاح**: دور علماء زواوة في تأطير الحيـاة الفكريـة فـي مـصر والأندلس..... ٦٣

- **عائشة بنت رشود الحربي**: الفاطميون وجهادهم المقدس ضد جودفري حامي القبر المقدس..... ٩٤

- **لخضر بولطيف**: الفقيه محمد بن سليمان اليفرني الكومي الندرومي صـورة من واقع المشهد الثقافي في مجتمع الغرب الإسلامي..... ١٢٦

- **المتولي السيد تميم**، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين الروس في عصر روسيا الكييفية..... ١٥٢

- **محمد الغضبان**، عودة للإمام المازري وبعض مـسائله المحيّـرة: نازلـة الدنانير المغشوشة نموذجاً..... ١٩٢

- **محمد عبد الحميد سعيد:** صورة السلطان في الكتابات الدعائية الرسـولية: السلطان الأفضل عباس بن علي نموذجاً..... ٢٣٦

- **محي الدين لاغه**، تداخل الشفوي والمكتوب في تاريخ المغرب الإسـلامي: الكاهنة أنموذجاً..... ٢٧٦

- **منذر الحايك**، الشاميون والفرنج: تصور الآخـر فـي عـصر الحـروب الصليبـية..... ٢٩٦

- **نجلاء حسني مبارك:** أثر ابن برجان في حركة المريدين بالأندلس..... ٣٢٤

- **ياسر نور**، علماء الفيوم ودورهم في الحياة العلمية من العصر العباسي الأول حتى نهاية العصر المملوكي..... ٣٦٨-٤٠٦

تقـــديم

يسعد هيئة تحرير "**حولية التاريخ الإسلامي والوسيط**"، في ثوبها الجديد، بعد أن حـــصلت علـــى رقـــم التـــصنيف الـــدولي ودشـــنت موقعهـــا الإليكترونـــي (http://jmih.zxq.net) أن تقدم للقارئ عامة والباحث خاصة العدد الـــسابع الـــذي يحوى بين جنباته، وكعادة المجلة، مجموعة طيبة ومتميزة من الدراســـات والبحـــوث التي تتسم بالعمق والجدية والأصالة التاريخية. ويتميز هذا العدد بأن الطابع المغربي-الأندلسي يطغى عليه، فسبعة بحوث من جملة بحوث العدد البالغة أحد عشر بحثا تدور حول قضايا عدة من تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي الوسيط. أما بقيـــة بحوث العدد فتتباين موضوعاتها ما بين موضوعات في الحروب الـــصليبية ومـــصر الإسلامية وروسيا الكييفية.

وهذا المجلد يحوي بين جنباته مجموعة متميزة من المـــؤرخين المـــصريين وغير المصريين الذين يشار إليهم بالبنان. ويفخر قسم التاريخ بآداب عين شمس وهيئة تحرير المجلة بأنها دوما تجمع كل المؤرخين العرب وغيـــر العـــرب أيـــضاً علـــى صفحاتها. غير أن هذا العدد يتميز بثوب عربي خالص، نسجت خيوطه من بنات أفكار مؤرخينا من المحيط إلى الخليج.

ولا يسع هيئة تحرير الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تتقدم بالشكر للأستاذ الدكتور طارق منصور، على دأبه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المـــادة العلميـــة التي ضمها هذا العدد، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وإنه مما يسعد أمانة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقي كل الملاحظات والمقترحات التي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بهـــا إلـــي مكانة علمية عالمية مرموقة ترتجيها وإليهـــا نـــسعى علـــى بريـــدها الاليكترونـــي: tm_jmih@hotmail.com.

هيئـــة التحريـــر

تداخل الشفوي والمكتوب في تاريخ المغرب الإسلامي: الكاهنة أنموذجا

***أ.د. محيي الدين لاغة**
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة
الجمهورية التونسية

بات حالياً من الثابت لدى المؤرخين كما لدى علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا وأيضا الفيلولوجيين أن نشأة الكتابة والتدوين وحتى الطباعة لم يُفقدْ الشفوي دوره، بل أنّ التلازم بين التقنيتيْن (الشفاهية والمكتوب) كان السمة الأساسية في تداول المعرفة لدى مختلف الشعوب، بمن فيهم العرب المسلمون. فلئن بُدِءَ في تدُوين أحداث صدر الإسلام في مصنفات انطلاقا من مفتتح القرن الثالث فإن محتوى المصنفات التاريخية لم يبق جامدًا بلْ أنه تبدل بعمق إلى حد التناقض أحيانا متأثرا بذاكرة الوسط الثقافي الذي عايشه نقلةُ الأخبار؛ هذه الذاكرة المُرتبطة هي ذاتها بالانتماء القبلي أو المذهبي أو العرقي.

ويوفر الأدب التاريخي المتصل بالانتشار العربي الإسلامي ببلاد المغرب مُنطلقًا مثاليًا لدراسة تأثّر الكتابة التاريخية بالوعي الثقافي العام، وحَصْرًا لحدود هذا البحث يمكن الانطلاق من تطور صورة الكاهنة في المصادر. فلئنْ أجمعتْ المصادر على أن الكاهنة كانت العائق الرئيس لتقدم المسلمين في المنطقة وأنها قادتْ أعنف مقاومة عاقتْ ضمّ بلاد المغرب "لدار الإسلام" خلال النصف الثاني من القرن الأول للهجرة فإن الباحث يلاحظُ تَبدّل صورتها، بل تحولها من النقيض إلى ضده في أحيان كثيرة، بين مصادر القرن الثالث للهجرة ومصادر القرون اللاحقة. و يؤشر هذا على الأرجح إلى تدخل الموروث الشفوي في الأخبار الأصلية لاسيما أن مجمل مصادر الروايات المتأخرة مضطربة أو غير بينةٍ؛ فكانت النتيجة تضخّمَ محتوى الروايات المتصلة بهذه الشخصية إلى حد تداخل الوقائع التاريخية بالتعبيرات الخيالية والأسطورية.

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي ورئيس قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة، تونس.

ومن المفيد التنبيه إلى أنّ الغرض الأساسيّ من البحث ليس دراسة مرحلة الانتشار العربي الإسلامي بالمغرب خلال سبعينات القرن الأول للهجرة، وهو موضوع تم تناولها في عدد غير محدد من الأبحاث،[1] ولا البحثَ في الجانب الأسطوري في ملحمة الكاهنة[2] بقدر ما هو التعرف إلى مدى تسرب الشفوي في الخبر المدون عن الكاهنة.

١ - الكاهنة: من الخبر إلى الرواية:

لو أراد الباحث تجاوز تحديد المسلمين الأوائل[3] لأصناف الخبر وأنّ بعضها محمول على الصدق بالضرورة وهو المتعلق بالأخبار ذات الصبغة المقدسة والباقي الآخر قابل للشك للاحظ أنّ في الأخبار التاريخية صنفٌ من الخبر يهم بعض الأحداث الجامدة غير القابلة للتبدل بحكم طبيعتها من قبيل تلك المتعلقة بالخطط أو الإجراءات المالية وصنفٌ ثانٍ خضع إلى تغير مستمر وعميق أحيانا في محتواه يعني بالأحداث السياسية أو العسكرية أو ذات البُعد المذهبي أو القومي؛ ومن هذا الأخير صورة الكاهنة في المصادر.

---

[1]- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩؛ هشام جعيط، تأسيس الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٤؛ حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت. ؛ عمامو، حياة، أسلمة بلاد المغرب،إسلام التأسيس من الفتوحات إلى ظهور النحل، دار أمل للنشر، صفاقس، ٢٠٠٤؛ حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، ١٩٤٨.

Brunchvig, R., "Ibn Abdelhakam et la conquête de l'Afrique du Nord," *Etude critique, dans A.I E.O.* VI(1942-47), pp.108-155; Levy Provençal, "Un nouveau récit de la Conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes," *Arabica* I (1954), pp.17-43; Idris, H. R., "Contributions à l'histoire de l'Ifrikiya d'après le Riyad al-Nufus d'abû Bakr al-Malîki," *Revue des Etudes Islamiques*, I (1935), II et III(1936); Marçais, G., "Un siècle de recherche sur le passé de l'Algérie musulmane," dans *Histoire et Historiens de l'Algérie*, (Paris 1931), p. 150 et suivantes; Taha D., The Muslim Conquest and Settlement of Noth Africa and Spain, (Londres-New York, 1989).

[2]- سعد زغلول عبد الحميد، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والأسطورة الشعبية، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية ١٩٦٣؛ M. Talbi, "Un nouveau fragment de l'histoire de l'Occident musulman (62-196/682-812)," dans *Cahiers de Tunisie*, 73 (1971), pp.19-52; Hannoum Abdelmajid, Historiographie et légende au Maghreb : la Kâhina ou la production d'une mémoire. In: *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, 54/3(1999), pp. 667-686.

[3]- الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، جمعية المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٩٥٧، ص١٢؛ التهانوي (محمد على)، كشاف اصطلاحات الفنون ، دار قهرمان للنشر، إسطنبول، د. ت.، مادة خبر.

أ- صورة الكاهنة في المصادر المشرقية الباكرة:

يرقى أقدم ما نعرفه عن الكاهنة إلى **محمد بن عمر الواقدي** (ت ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢م) وذلك من خلال رواية مُختَصرَة أوردها البلاذري (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م)[٤] ثم من بعده مؤرخ متأخر عاش في القرن الثاني عشر وهو ابن الأثير؛ وفيها اعتبر الواقدي خروج الكاهنة ردَّ فعل مباشر على مقتل كسيلة من قِبل زهير بن قيس البلوي وأقرّ بقوتها بما أنها سيطرتْ على كامل إفريقية وتمكنتْ في مرحلة أولى من الانتصار على حسان بن النعمان الغساني الذي وجهه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لمواجهتها بل من دحره إلى نواحي برقة قبل أن يعود إليها بتعزيزات أضخم ويتمكن من قتلها وقتل أولادها. ولعلّ أبرزَ ما يميز الكاهنة في رواية الواقدي هو تأكيده على دورها السلبي في إفريقية بما أنها "عملتْ بأهلها الأفاعيل القبيحة وظلمتهم الظلم الشنيع ونال (على يدها) مَنْ بالقيروان من المسلمين أذًى شديدً"[٥].

أمّا رواية خليفة بن خياط (ت 240هـ/٨٥٤م) المتزامنة تقريبا مع رواية الواقدي فقد جاءتْ في شكل إشارات متفرقة وفيها اضطراب بيّن، بما أنه ذهب إلى أن حسان بن النعمان قام بحملة أولى على افريقية في سنة سبع وخمسين خلال خلافة معاوية وهو بذلك يخلط بين معاوية بن حديج وحملة حسان. كما تتسم الرواية بالاقتضاب إذْ اكتفى ابن خياط بالإشارة إلى أن حسان "غزا أوراس وفتح" سنة ٧٢هـ وعاد إلى ذكر حسان مرة أخيرة في أخبار سنة ٧٨هـ عندما أشار إلى عزله عن القيروان بتأثير من والي مصر القوي عبد العزيز بن مروان[٦]. في

---

[4]- البلاذري (احمد بن يحي)، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٢١.

[5]- ابن الأثير (عز الدين)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ج٤ ، ص ٣٧٢.

[6]- ابن خياط(خليفة)، تاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم ومؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٢٤، ٢٦٨، ٢٧٧.

كل ذلك تغيب الكاهنة بشكل شبه تام بما أنه لم يردْ ذكرها غير مرة عندما أشار إلى مقتلها سنة ٧٤ للهجرة[٧].

ما يجمع بين الروايات المشرقية إذن هو أن الكاهنة كانتْ العائق الرئيس في وجه ضم المسلمين للمغرب إلى دار الإسلام وهو ما اقتضي تدخل الخليفة ذاته لإنجاح مشروح الجهاد وبالتالي تبدو حملة حسان عبارة عن ملحمة بين بطل مسلم وخصم معاد للمسلمين يتحمل المسؤولية في تردي الأوضاع. وتتخلص الرواية إلى أن قتل الكاهنة لا بد أنه يدشّن مرحلة جديدة من مراحل تاريخ بلاد المغرب تتسم بالاستقرار بعد مرحلة تميزت بالظلم والتعسف.

ب- صورة الكاهنة في المصادر المغربية المتقدمة:

اتخذت الروايات المتعلقة بالكاهنة منحًى آخر بدأتْ معالمه مع مؤرخ مصري لكنه اعتمد بشكل عام على موارد مغربية هو **عبد الرحمن بن عبد الحكم** (ت ٢٥٧ هـ/٨٧١): تتفق روايته ونظيرتها المنسوبة للواقدي عند تناول المرحلة الأولى من المواجهة والتي انتهتْ بانتصار الكاهنة على حسان بن النعمان وإجباره على الانسحاب إلى ما وراء حدود إفريقية؛ لكن اختلافا واضحا يتجلى بشكل خاص عند استعراض الأحداث التي حفتْ بحملة حسان الثانية لبلاد المغرب وانقلاب موازين القوى لفائدة المسلمين. يبدو ذلك على مستوى الأسلوب والمحتوى.

فقد اتخذ الأسلوب منحًى حواريا ملحميا حينا وإنشائيا ذا مُسحة رومنطيقية حينا آخر[٨] وأصبح المحتوى أكثر تفصيلا وذكرا للجزئيات: وُصفتْ الكاهنة بـــ "ملكة البربر" بما يعني اعترافا واضحا بسلطتها وبعد أن أشار ابن عبد الحكم إلى الانتصار السريع والسهل الذي حققه حسان على البيزنطيين المتحصنين بقرطاج وكذلك أفاد أن القائد الأموي استخلف أحد مساعديه المعروف بأبي صالح على القيروان قبل أن ينسحب إلى برقة، وهو ما يؤشر

---

[7]- ابن خياط، نفس المصدر، ص ٢٧٠.

[8]- Hannoum Abdelmajid, *ibidem*.

إلى أن ذلك المصر بقي خارج سيطرة الكاهنة وأن الوجود الإسلامي لم ينتفِ من إفريقية بشكل تام خلال الفترة الممتدة بين انسحاب حسان من إفريقية وعودته إليها لاحقا [٩].

وتتوسع الرواية بشكل خاص بعد انتصار الكاهنة في المواجهة الأولى مباشرة واضطرار حسان إلى الانسحاب إلى برقة: ينقل مؤلف كتاب فتوح مصر والمغرب حيثيات جديدة منها أطلاق الكاهنة جميع أسرى المسلمين باستثناء خالد بن يزيد العبسي الذي تبنته ابنا لها وتبادل الرسائل بين الأسير وقائده حسان حول حقيقة الأوضاع بإفريقية وتنبئ الكاهنة بمحتوى المراسلات مع اتخاذها موقفا سلبيا تجاه ذلك رغم قناعتها بأخطاره على مستقبل البربر وكذلك تنبئها بنهايتها ولكن أيضا بأن يكون لأحد ابنيْها شأنا عظيما عند العرب ولذلك طلبتْ من خالد أن يتوسط لهما لدى حسان وأن يطلب لهما الأمان وهو ما فعله. وتنتهي رواية ابن عبد الحكم إلى تحقق رغبة الكاهنة بما أن حسان قام بتولية ابنها الأكبر قائدا على جماعة من البربر البتر كانوا معه ومن التطور الطبيعي لذلك أن تُهزم "ملكة البربر".

ويُستنتج من السابق أنّ عناصر جديدة ذات بُعد اجتماعي تمّ إدماجها في الرواية من قبيل التبني والتكهن بالمستقبل كما يُلاحظ بداية تحول في صورة الكاهنة: إذْ بدتْ حليمة وعطوفة على خالد الذي يرمز إلى العربي الغازي وأصبحتْ أكثر واقعية في التعامل الأحداث عندما فكرتْ في طلب الأمان لأبنائها (وبالتالي قومها) في خطوة تشبه بداية الاستسلام المبكر وقبول الأمر الواقع الجديد والمتمثل في حتمية تطور الأوضاع بالمغرب نحو الخضوع لسيطرة المسلمين. وفي هذا الإطار اعتبر ابن عبد الحكم نهاية الكاهنة بداية الاستقرار الفعلي بإفريقية إذ رجع حسان إلى القيروان "وبنا جامعها ودون الدواوين ووضع الخراج على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر... وأقام حسان حتى استقامتْ البلاد"[١٠].

خلال القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر ميلادي: تعددتْ الروايات وتمّ إدماج تفصيلات جديدة:

---

[9]- عبد الحكم (عبد الرحمن)، فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة للثقافة، القــاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٦٩.

[10]- ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٧١.

إذْ يُلاحظُ تقاربٌ جليّ بين محتوى روايتيْ **الرقيق القيرواني** (ت بعد ٤٢٥ هـ/١٠٣٤م) و**أبي بكر عبد الله المالكي** (ت ٤٣٨ هـ/١٠٥٨). ولا يُستبعدُ أن يكون الأخير هو الذي نقل عن الأول الأسبق زمنيا أو اشتركا في الأخذ عن نفس المصادر إلاّ أنّ ما توفره رواية المالكي يبدو أكثر تفصيلا بسبب ضياع قسم من رواية الرقيق.

ففي روايتيْهما تضخمتْ صورة الكاهنة فأصبحتْ "أعظم ملوك إفريقية و مَنْ إذا قُتلتْ أو قُهرتْ دانتْ إفريقية... ويئس الروم والبربر من أنفسهم"[11]. و مقارنة بالروايات السابقة أورد كل من الرقيق والمالكي معطيات أكثر دقّة عن المعركة الأولى وكذلك المعركة الثانية بدتْ من خلالها الكاهنة قائدة عسكرية محنكةً عارفة بجغرافية المنطقة ومتحفزةً لمواجهة مناورات خصمها. وترد في نفس الروايات تفْصيلات مهمة عن لأعمال التي قامتْ بها الكاهنة قُبيل المعركة النهائية قدْ تعكس تأثرا بعيدا بالمحيط الثقافي: فلم يعد تبنّي الكاهنة لخالد العبسي لفظيا فحسب بل سعتْ لتأكيد مؤاخاته مع ابْنيْها ماديا. وهنا ترد الإشارة إلى تقليد ساد لدى البربر مفاده وجوب تأسس الأخوة على الرضاع، وبسبب تقدمها في السن ألزمت الكاهنة ثلاثتهم بالأكل من "البسيسة" التي وضعتها على ثدييها مُعتبرةً ذلك من "أعظم العهد" لدى البربر[12]؛ علما أنّ مشاركة المأكل مازالتْ إلى حد الآن أحد ضمانات الوفاء عند سكان المغرب.

وأدمجَتْ روايتا الرقيق والمالكي عنصرا جديدا عند استعراضه لحيثيات ما قبل المواجهة الحاسمة مع حسان أهمها التركيز على وصف الكاهنة (تتنبأ وتتكهن، ناشرة شعرها) وتأكيدها على أنها ليست زعيمة في المطلق بل مستأمنة على كرامة قومها من البربر؛ إذْ رفضتْ بقوة الانسحاب من المواجهة رغم قناعتها بالهزيمة لا شجاعةً والتزامًا بشيم الملوك فحسب بل وخاصة حرصًا على صيانة "قومها" من العار. مع ذلك تنخرط روايتا

---

[11] - الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٥، ص ٧٣- ٧٤؛ المالكي (أبو بكر بن عند الله)، رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية وزهادهم، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥١، ج١ ص ٣٢.

[12] - " عمَدتْ الكاهنة إلى دقيق مقلوّ فأمرتْ به فلُتّ بزيت والبربر تسمي ذلك البسيسة، ثم دعتْ يزيد بن خالد و إبنيْن لها فأمرتْهم فأكلوا ثلاثتهم منها. وقالتْ لهم "أنتم صرتم إخوة" وذلك عند البربر من أعظم العهد في جاهليتهم"، الرقيق، نفس المصدر، ص ٧٨/ المالكي، نفس المصدر، ج١ ص ٣٤.

الرقيق والمالكي في نسق الروايات التي تم تداولها منذ القرن الثالث للهجرة والتي تذهب إلى أنّ نصيحة الكاهنة لأبنائها[١٣] بالالتجاء إلى العرب الفاتحين ليس فقط اعترافا بواقع جديد بل مثل البداية الفعلية لإدماج المغرب في الفضاء العربي الإسلامي، إذْ تم إدماج أعداد من البربر في الجند وتم تشريك بعضهم في قيادة وحدات من الجند[١٤].

أما **أبو عبيد البكري** الذي عاش في نفس القرن (ت ٤٨٧ **هـ/**١٠٩٤) فقد أضاف عناصر جديدة: الإشارة الضمنية إلى أن نفوذ الكاهنة كان يمتد إلى غدامس التي كانت بها دواميس استعملتها الكاهنة لسجن معارضيها[١٥]. ويُلاحظ اضطراب في رواية البكري في خصوص موضع المعركة الأولى حينما تفيدُ بأنّ هزيمة حسان قد حصلتْ بأرض قابس[١٦] وكذلك في موضع المعركة الحاسمة التي حصلتْ في" قصر الجم"[١٧] أو في طبرقة حسب رواية أخرى[١٨]؛ كما تضيف رواية البكري بعض العناصر الأسطورية من قبيل حفر الكاهنة لسرداب بإمكان الخيل أن تسير فيه يمتد إلى "سلقطة"[١٩]. غير أن أهم إضافة ذات دلالة عند للبكري تتمثل في إشارته إلى أنّ القائد الميداني لجيش الكاهنة خلال المعركة الأولى لم تكن الكاهنة ذاتها وإنما أحد قادة كسيلة سابقا[٢٠] وكأنه يعني من وراء ذلك إلى أن تلك الهزيمة لم تكن في مواجهة امرأة، ومن الطبيعي في هذه الحال أنْ يُأخذ الانتصار النهائي على أنّه ليس انتصار المسلم على غير المسلم فحسب بل انتصار الذكر على الأنثى[٢١].

---

[13] - الرقيق أول من ذكر أسماء أبناء الكاهنة " وكان لها ولدان أحدهما قويدر و الآخر يامين"، نفس المصدر، ٧٧.

[14] - الرقيق، نفس المصدر، ٨٤؛ المالكي، نفس المصدر، ج١ ص٣٦.

[15] - البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والنشر والدراسات (بيت الحكمة)، تونس، ١٩٩٢، ج ٢ ص ٨٨١.

[16] - البكري، نفس المصدر، ٢ ص ٦٥٤.

[17] - البكري، نفس المصدر، ج ٢، ص ٦٧٠، ٦٨٤.

[18] - البكري، نفس المصدر، ج ٢ ، ص ٧٢٠.

[19] - البكري، نفس المصدر، ج ٢ ، ص ٦٧٠، ٦٨٤.

[20] - البكري، نفس المصدر، ج ٢، ص ٦٥٤.

[21] - Hannoun, art. op cité

ج- خلال الفترة المتأخرة من العصر الوسيط: تُثبتُ مصادر هذه الفترة أن صورة الكاهنة لم تَستكملْ بعدُ كل أطوارها وأنه تمّ إثرائها بتفصيلات لم تردْ سابقا، ويبدو ذلك جليا من خلال كتاب البيان المُغرب **لابن عذاري المراكشي** المتوفى في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة/XIVم وكذلك من خلال كتاب العبر **لابن خلدون** الذي توفي بعده بقرن كامل(ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م).

لئن مثل فحوى كتابه البيان المُغرب لابن عذاري امتدادا لما جاء رواية الرقيق[٢٢] إلى حد أن المؤرخ محمد الطالبي يذهب إلى التشكيك في وجود الرقيق ذاته وينسب كتابه إلى ابن عذاري[٢٣] فإن ما جاء في كتاب العبر ابن خلدون يجسد أوج الاهتمام بتاريخ البربر بين المؤرخين المسلمين[٢٤]: وقد اختزل ذلك في تصديره للكتاب الثالث من تاريخ البربر بامتداحه الطويل لهذا الشعب والتذكّير بالمقاومة العنيدة لحملات الفتوح العربية وبالكفاح المرير ضد الحملات المختلفة الآتية من الشرق كما استعرض الدول التي أسسها البربر قبل أن يختم بأنهم" جيل عزيز على الأيام، وأنهم قوم مرهوب جانبهم، شديد بأسهم، كثير جمعُهم، مُظاهرون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس واليونان والروم"[٢٥]. ولذا من الطبيعي أنْ تبلغ صورة الكاهنة في كتاب العبر أقصى تفصيلاتها.

زيادة عن المعطيات التي ذكرتها الروايات السابقة (عظمة الكاهنة وتأثيرها الواسع، الحملة الأولى والثانية، مؤاخاة ابنيها مع خالد القيسي، دفع ابنيْها إلى الالتحاق بالمسلمين...) وسع ابن خلدون محتوى ملحمة الكاهنة بذكر معطيات جديدة عن شخصية الكاهنة: حدّد انتماءها القبلي ونسبَها إلى "جراوة" إحدى بطون زناتة البربرية وذهب إلى أن الكاهنة هي صفة وأنّ اسمها الحقيقي هو دهيا (أو وهيّا) بنت تابنة (أو تاتية) بن نيقان (أو تيفان) بن

---

[22]- نقطة الاختلاف الرئيسية بين الاثنيْن في موضوع هذا البحث تتمثل فيما يذكره ابن عذاري من أن سلطان الكاهنة شمل المغرب كلّه.

[23]- Talbi M., art. *Un nouveau fragment de l'histoire de l'Occident musulman*.

[24]- علي أومليل، الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٩٢؛ Modéran, Y., *Les Maures et l'Afrique romaine (IV^e^-VII^e^ siècle)*, Ecole française de Rome 2003, p.743 et suite.

[25]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥١، ج ٦ ص ٢٠٦، ٢٠٧

باورا. وتباينتْ رواية ابن خلدون عن المصادر السابقة في خصوص عدد أبنائها بزيادة ابن ثالث بالبحث عن جذور سلطتها الواسعة عندما ذهب إلى أنها استمدتْها من كونها كانت قيّمة على أبنائها المنحدرين من سلالة حاكمة وورثوا الرئاسة من قومهم "فاستبدتْ عليهم وعلى قومها بهم" (المرأة لا تستحق الرئاسة)؛ كما أكدتْ رئاستها بما تملكه من قدرة على التكهن ومعرفة الغيب اعتمادًا على شيطان كان يوجهها. وزاد ابن خلدون أن الكاهنة كانت تدين باليهودية.

أما فيما يهم مدى سلطتها فقد أكد مؤلف كتاب العبر أنها شملتْ سائر البربر البتر وأن نفوذ الكاهنة تجاوز قبيلتها ليشمل قبائل أخرى بما أنها هي التي أغرتْ برابرة تهودة على قتل عقبة بن نافع وأن مدة ملَكها تجاوزتْ خمسا وثلاثين سنة منها خمس سنوات بعد التغلب على حسان. وتلتقي رواية ابن خلدون مع الروايات السابقة في أنّ هزيمة الكاهنة مثلت بداية التمهيد الفعلي لبلاد المغرب وبداية انخراط البربر في الدولة العربية الإسلامية[٢٦].

ولا تختلف الرواية المشرقية المتأخرة التي يمثلها ابن الأثير(ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م)[٢٧] وعنه على الأرجح أخذ النويري (٧٣٣ هـ/١٣٣٣م)[٢٨] في الواقع عن المصادر المغربية السابقة إلا فيما يرد فيها من إلحاح على الدور السلبي الذي لعبته الكاهنة في بلاد المغرب خلال الخمس سنوات الفاصلة بين انتصارها الأول على حسان وهزيمتها النهائية سنة ٧٤ للهجرة، وهو ما لُوحظ في الرواية المشرقية الأولى: بدا ذلك من خلال تخريب إفريقية وسيرتها الظالمة لأهلها. ويُفهم من سياق الروايات أنّ الروم (البيزنطيون) المستقرين بالمدن كانوا هم المستهدفين من تلك السياسة وهو ما يبرر استغاثتهم بحسان؛ بل أنهم وفروا له مساعدة مكنته من ضم قابس ومناطق قفصة وقسطيلية ونفزاوة.

---

[26]- ا بن خلدون، نفس المصدر،ج ٤ ص ٢٢٣، ٢٢٤، ج٧ ، ص ١٠- ١١.

[27]- ابن الأثير، نفس المصدر، ج٧ ، ص ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢.

[28]- النويري(شهاب الدين)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق يحي الشامي، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، د.ت.، ج ٢٤ ، ص ١٩، ٢٠.

وتتويجا للجرد السابق من المهم الإشارة إلى أن الرواية المغربية المتأخرة رددتْ على العموم محتوى رواية ابن خلدون بكل جزئياتها؛ يبدو هذا جليا من خلال كتاب الاستقصاء للناصري بالمغرب الأقصى[٢٩].

من البيّن إذا أنّ المعلومات الواردة في المصادر التاريخية حول مرحلة المواجهة بين البربر بقيادة الكاهنة والعرب المسلمين الساعين لبسط سلطانهم على المغرب قد توسعت بمرور الزمن ولا سيما تلك المتصلة بشخصية الكاهنة. وهناك اتفاق بين كل الباحثين الذين درسوا هذه المسألة بالذات على أنّ الوقائع التاريخية فيها امتزجتْ لا محالة بمواد قصصية وربما خيالية أسطورية[٣٠]. وبما أن التوسع في الرواية قد تم في زمن متأخر عن الحدث فهو على الأرجح علامة على اندغام مواد هي في جوهرها نتاج شفوي ضمن المعلومات المُفصلة للأحداث التاريخية الأصلية.

٢ - الكاهنة في ضوء النقد التاريخي أو حضور الشفاهي في التأريخ للكاهنة:

أ- ملحمة الكاهنة مُحصلة لاندماج مدوّنٍ بإضافات شفاهية؟

ما هي الشواهد التي تدفع نحو الاعتقاد في أن قسما مما يرد في المصادر هو إدماج شفوي متأخر؟

شاهدٌ أولٌ عام يكمنُ في صعوبة الفصل في مصادر التاريخ الإسلامي بين ما يرد كخبر تاريخي أصلي صيغ لنقل حيثيات الحدث في حد ذاته وبين ما أنضاف إليه من زيادات قد تكون نتاجا للمخيال الشعبي في مراحل اللاحقة. ينطبق هذا على مجمل الأدب التاريخي العربي الإسلامي ولا يعني تاريخ المغرب وحده، ومن الطبيعي أنْ يشمل ذلك التأريخ للكاهنة. ويُفهم ذلك بجملة من الأسباب:

- إشكالية زمن بدْء تدوين العلوم العربية الإسلامية برمتها: فمنذ ما يزيد عن القرنيْن برز جدل بين الباحثين تمحور حول زمن بدْء تدوين المعرفة عند العرب المسلمين بشكل واسع.

---

[29]- الناصري (أحمد بن خالد)، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، د. ت.، ج ١ ، ص ٤٢ - ٤٣.

[30]- حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٤٢؛ سعد زغلول عبد الحميد، نفس المرجع، ج ١ ، ص٢١٧؛ Talbi M., art. *al-Kahina*, op. cité.

ولم يكن هذا الجدل غير صدًى لاختلاف أسبقَ نلمسُه في المصادر العربية الإسلامية حول ما إذا قد تمّ تدوين العلوم المتصلة بالدين الجديد، وتحديدا السيرة وأحداث الإسلام الأول، منذ فترة مبكرة أم أنّ تقديس تقنية الإسناد أجّل تلك العملية إلى ما بعد سقوط الدولة الأموية وأبقى الرواية الشفهية الأداة الأساسية لتداول المعرفة. ومهما يكنْ الأمر، فإذا كان من الصعب على الباحث أن يأخذ التحديد الذي ساقه شمس الدين الذهبي لبدْء تدوين العلوم عند المسلمين في كتابه تاريخ الإسلام (سنة ١٤٣ للهجرة) على أنه تأريخٌ لبدْء تقييد المسلمين لموروثهم الثقافي فإن ذلك لا يمنع من اعتباره مؤشرا حقيقيا على توسع عملية التدوين انطلاقا من تلك المرحلة. أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تأخير البدء في تدوين أحداث إدماج المغرب في الفضاء العربي الإسلامي.

- توظيف الأحداث التاريخية لخدمة الدعاية السياسية أو المذهبية وحتى الأسرية و الفردية، ولذلك تأثر لا محالة كما تأثر من قبله الحديث بالوضع والتسريب.

- وهناك سببٌ آخر لا بد على الباحث أن يأخذه في الحسبان والمتمثل فيما يُلاحظ من قلة عناية المؤرخين المشارقة الأوائل بتاريخ المنطقة، إذْ لم يتعدّ مُجمل ما خصصه الطبري (ت٣١٠/٩٢٢) مثلا لسرد أحداث إدماج المغرب والأندلس الصفحة الواحدة في كامل حولياته المُعدة الأوسع خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسلمين، وهو نقص عاينه مؤرخ مشرقيّ آخر متأخر (عز الدين بن الأثير) فصرّح بنيته تلافيه[٣١]. وتنطبق نفس الملاحظة على خليفة بن خياط وعلى البلاذري.

الشاهدُ الثاني : إن الروايات المتأخرة تختلف اختلافا جوهريا عن الروايات الأولى لا في جزئيات الأحداث التاريخية فحسب بل وخاصة في وصف المظاهر الخارجية لأبطال الأحداث ومشاعرهم.

الشاهدُ الثالث يتمثل في ضبابية موارد المعلومات عن بالكاهنة:

فقد جاءتْ رواية الواقدي بدون إسناد، أما ابن خياط فقد نقل قراءةً عن يحي بن عبد الله بن بكير الذي روي بدوره عن مُخبرٍ آخر ذُكر باسم الليث [٣٢]، لكن الاثنيْن مجهوليْن.

---

[31]- ابن الأثير(عز الدين)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ج ٤ ، أحداث سنة ٩٢ للهجرة.

[32]- ابن خياط، نفس المصدر، ص ٢٦٨، ٢٧٠.

أما كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم فقد استند فيه صاحبه بدرجة أولى إلى موارد مصرية بعيدة عن الحدث منها عبد الملك بن مسلمة و عثمان بن صالح[٣٣] المتوفى في حدود ٢١٩ هـ والذي استطاع أن يُعطي من ذاكرته أوسع رواية عن تاريخ الفتوح ببلاد المغرب والأندلس حسب محقق كتاب فتوح مصر والمغرب. كما أفاد ابن عبد الحكم من عبد الرحمن بن أنعُم المتوفى في حدود سنة ١٦١ للهجرة، علمًا أنّ ابن أنعم قد انخرط في الحياة العامة حتى أنه أُسر من قبل البيزنطيين سنة ١١٦ للهجرة الموافق ٧٣٤م ثم أفرجَ عنه بفدية بعد سبع سنوات كما أنه سار سنة ١٤٠/ ٧٥٧م على رأس وفد من القيروان إلى العراق للاستنجاد بالخليفة العباسي المنصور من الخوارج الذين استولوا على القيروان. وقد مكنه ذلك بلا شك من الإطلاع على الوثائق الرسمية لكن أعطاه بالأخص سلطة أدبية ومعنوية لنشر معرفة تاريخية و حتى قصصا شعبية مشحونة بصبغة أسطورية[٣٤].

واستند كل من الرقيق (الذي نقل بدوره عن ابن أنعم) وابن عذاري وأبو عبيد البكري إلى يوسف الوراق.

أما أبو عبد الله الأحداني الذي أخذ عنه المالكي وهاني بن بكور الضريسي الذي روى عنه ابن خلدون[٣٥] وانطلاقا منه الناصري[٣٦] فهما مجهولان.

الشاهد الرابع: أغلب العناصر المُدمجة في ملحمة الكاهنة وليدة الثقافة البربرية:

يذهب "والتر أونج" إلى أن الذاكرة الشفاهية تنشط بفاعلية عندما يتصل الشأن بأشخاص ذوي قيمة اعتبارية فتولد شخصيات بطولية وحتى بصفات غير مألوفة[٣٧]. وفي هذا الإطار تنتج المجتمعات المختلفة أدبا جماعيا يُتداولُ شفويا ويستمر في الحضور لأزمنة طويلة وذلك بغية التعبير عن واقع متغير أو إثبات ذاتية مهددة. يؤدي ذلك بالنتيجة إلى تداخل "الثقافة العامة" و"الثقافة العالمة" وتقارب بين "الذاكرة الثقافية" و"الذاكرة التاريخية" انتهاءً بإنتاج "ذاكرة

---

[33]- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ٢٦٩، ٢٧١

[34]- انظر ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ١٨٦.

[35]- ابن خلدون، نفس المصدر، ج ٧ ، ص ١١.

[36]- الناصري، نفس المصدر، ج١ ، ص ٤٢

[37]- والتر أونج، الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، الكويت، سلسلة عالم المعرفة عدد ١٨٢، فبراير ١٩٩٤، ص ١١٨.

جماعية"[٣٨] أو "مُتَخيّل جماعي" تسعى المجموعة البشرية من خلاله إلى المحافظة على ذاتيتها وموروثها بوسائط مختلفة، من أبرزها التداول الشفوي والتدوين.

إنّ ما يجب التأكيد عليه في هذا الخصوص هو أن لا قطيعة بين الذاكرة الثقافية التي قد تكون شفاهية في قسم واسع منها وبين التاريخ المُدوّن، إذْ يتأكد باستمرار التفاعل الدائم بينهما. ولأنه لا قطيعة بين الشفاهي والمكتوب فقد يتأثر التاريخ المكتوب بما يتم تداوله شفويا بل قد يتحول هذا الشفوي إلى مكتوب ويتسربُ بهدوء في الأدب والقصص حسب تعبير "جاك لوقوف"[٣٩] وكذلك في المصادر التاريخية.

ويرتهن اتساع هذا التسرب وسرعته بالظروف الموضوعية التي يعيشها المجتمع إذْ من الطبيعي أن يكون عميقا في المجتمعات غير الكتابية أو تلك التي تكون فيها نسبة المتعلمين محدودة على غرار الوسط البربري في العصر الوسيط حيث تميزت اللغة البربرية بالصعوبة والتجزؤ، بل يبدو أنها تراجعت بصورة لافتة أمام لغات الغزاة المتتالين خلال العصر القديم ثم الوسيط كما لاحظ ذلك "ألفرد بل"[٤٠]. ويذهب أركون في نفس الاتجاه تقريبا عندما لاحظ أنّ الحالة الثقافية ببلاد المغرب تميزتْ ومنذ الفترة الرومانية بتواجد أقلية سكانية ذات أصول أجنبية تعتمد على الكتابة وذات ثقافة عالمة (Culture savante) في حين لم يتجاوز الغالبية وهم السكان الأصليون الثقافة الشفوية (Culture orale immémoriale) بسبب افتقادهم لكتابة متكاملة الخصائص[٤١].

وهناك عامل لا بد أنه ساعد على دعم حضور الشفوي في المصادر المكتوبة بصورة أو بأخرى ويتمثل في الدور الذي قد تكون لعبته أجهزة الدول في المنطقة من خلال

---

38 - Guy P. Marschall, "De la mémoire commutative à la mémoire culturelle, le passé dans les témoignages d'Arezzo et de Sienne (1177- 1180)," *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, 56/3(2001), pp. 563-589.

39 - جاك لوغوف، نفس المرجع، ص ٥١٤.

40 - ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص٤٧.

41 - Arkoun, M., "Lucette Valensi, Fellahs tunisiens : l'économie rurale et la vie des campagnes aux XVIII[e] et XIX[e] siècles," *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations*, 34/3(1979), pp. 626-629.

العناية بالقصاصين وذلك بخلق وظائف رسمية يُختار لها ذوي الدراية بأحوال المسلمين السابقين مقابل رواتب سخية أو مكانة مرموقة في البلاط؛ تماما كما كان يحصل في باقي فضاءات العالم العربي الإسلامي[٤٢].

ضمن هذا السياق تمت إعادة الاعتبار لمواد قصصية وربما أسطورية كانت مبثوثة في الذاكرة الجماعية وتمّ تسريب الكثير منها إلى الأدب التاريخي المكتوب:

- أن مسألة تكهن الكاهنة وتأكيد قدرتها على التطلع إلى الغيب ليستْ بظاهرة غريبة عن الحضارات القديمة المختلفة، بمن فيهم العرب[٤٣] وهي متأصلة في التقاليد البربرية ونفس الملاحظة تنطبق على التبني وقد كان تقليدا معروفا في الفلكلور المتوسطي عامة حسب "فان قناب" (Van Gennep).

- في خصوص قدرات الكاهنة السحرية وما يصحبُ ذكر ذلك من وصف خارجي سلبي لمظهرها فهي صفات تتماهى وما هو مبثوث في الثقافة الشعبية في بلاد المغرب؛ إذْ لا تختلف الصفات المصبوغة على الكاهنة مع قصة الساحرة الشريرة التي تخرب كل مكان حلتْ والتي كان لها أبناء الثلاثة مجهُولي الأب وقد أوردها الفرنسي "باسيت" الذي قام بدراسات عديدة عن الوسط الثقافي البربري[٤٤]. ونفس النسق يمكن النظر إلى ما يرد حول الشعر الطويل للكاهنة باعتباره دلالةً للنفوذ السحري ويهدف إلى إدخال الخوف والرهبة، تماما كما هو الأمر في حضارات مختلفة[٤٥].

- أما اتخاذ الكاهنة من جبال الأوراس موطنا لها فيقترب من التقييم الذي يعتبر قمم المرتفعات وخاصة الجبال موطنًا مثاليا للآلهة والجن في قصص سكان بلاد المغرب[٤٦].

---

[42]- ضمن هذا السياق يمكن فهم طلب معاوية بن أبي سفيان من عبيد بن شرية الجرهمي أنْ يقص له أخبـــار المتقدمين وأمر بتدوينها، ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د. ت. ، ص١٣٢.

[43]- خصص النويري فصلا كاملا من موسوعته للحديث عن المتكهنين المتكهنات عند العرب

[44]- Basset, R., "Berbers and North Africa," *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, II (1910), pp. 506-507.

[45]- Leach, R., Magic Hair, *The Journal of Royal Anthropological Institute*, vol. 88, pt. II (juillet- decembre 1957), pp. 147-167.

[46]- Basset, R., "Berbers and North Africa," *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, II (1910), pp. 506-507.

وكذلك الأمر بالنسبة لفكرة المرأة التي تهزم القادة من الرجال: فكرة أصيلة في المجتمع البربري حسبا يبدو وقد تكون تعبيرا عن سلطة تستند إلى سلطة الأم لدى بعض القبائل البربرية مثلما يسود بين قبائل التوارق إلى حد الآن[٤٧].

ج- العودة إلى التاريخ: الأبعاد التاريخية من وراء تضخيم صورة الكاهنة؟

يجب التنبيه إلى أن إدماج بعض عناصر الموروث الشفاهي في المصادر المكتوبة لا يجب أن يُأخذ على أنه رفض للسيطرة العربية الإسلامية على بلاد المغرب و أن هذا المقصد لم يخامر المدونين ولا يمكن قبوله باعتبار أنهم عربُ في جملتهم وكذلك الأمر بالنسبة لمصادر معلوماتهم. ولذا على الباحث أن يستطلع خفايا ذلك في البعد التاريخي وتحديدا في الإطار التاريخي الذي صيغتْ فيه الرواية المتعلقة بالكاهنة. فمن خلال الجيل الأول من الروايات (رواية الواقدي بصورة خاصة) لا تبرز الكاهنة شخصية متميزة عما هو تاريخي. فقد كان غرضها(الرواية) التأكيد على أنّ الصراع لم يكن بين ثائرة ودولة المسلمين بل بين بربر بقيادة الكاهنة والمسلمين الساعين للسيطرة على أراضيهم. وتجدرُ الإشارة هنا إلى أن الرواية المشرقية موجهة إلى الضمير المشرقي بدرجة أولى.

وفي مرحلة ثانية وبعد أسلمة القسم الأكبر من السكان الأصليين تحول أخبار ملحمة الكاهنة لتسَجّلَ بإيجاب ضمّ بلاد المغرب إلى الفضاء العربي الإسلامي وفي ذات الوقت للتأكيد على أن مقاومة الكاهنة كانت محطةً أثبت فيها قسم من البربر أنهم " قوم عزيز على الأيام " حسب النعت الذي وَسَمهُم به ابن خلدون؛ ولذا من المنطقي أنْ تُدمج فيها المعلومات المتضاربة وأنْ تُضمّن موادّ جديدة أو تدقيقات. فمنذ القرن الثاني أصبح المغرب عمليا جزءا من دار الإسلام وتقدمت أسلمة المجتمع وأجهزة الحكم والإدارة شوطا بعيدا لكن ذلك التطور لم يكن مصحوبا بإجراءات فعلية من أجل إثبات تساوي المسلمين في الحقوق كما يُفهم من ظاهر النصوص التشريعية. تنج عن ذلك تذمرٌ تجلى بأشكال مختلفة تطور إلى انتفاضات تحت مسميات مختلفة (ثورات خارجية، انتفاضات الجند) ثم انتهى إلى استقلال المغرب في

[47]- ألفرد بل، نفس المرجع، ص ٥٠- ٥١.

إطار دويلات تعتمد على البربر بصورة شبه تامة(الأدارسة) أو إمارات بربرية بالكامل[٤٨]. وكان من المنطقي أن ينعكس ذلك التطور على المستوى الفكري.

في هذا الإطار يجب فهم الرواية التي تفيد طلبَ الكاهنة من أبنائها الالتحاق بالعرب حتى قبل المعركة الحاسمة على أنها دعوة تتجاوز القبول بالسيطرة العربية على المنطقة إلى دعوة للمساواة بين العرب الفاتحين والذين تزايد عددهم باستمرار منذ نهاية القرن الأول؛ وهي أيضا دعوة ضمنية للتعاون بين المجموعتيْن: ففي زمن الواقدي وابن خياط لم يكن مخيال"الأمة الإسلامية" واعيا بوجود البربر[٤٩] أو لم يكن هناك مبرِّر قويٌ يدفع نحو ذلك لكن التطورات التي حصلتْ لاحقا جعلتْ ذاك الأمر ضروريا سيما لدي إخباريي بلاد المغرب؛ وقد تكون محاولات البحث عن الأصل الشرقي للبربر وأنهم من عرب الجنوب أو من ساميي الشمال تسير في نفس ذات الاتجاه[٥٠].

ومن نفس المنطلق ربما تحولت نظرة المصادر لشخص الكاهنة حينما أصبحت الكاهنة حليمة ذات شعور إنساني بمعاملتها لأسراها بالحسنى، عطوفة لا على أبنائها فحسب ولكن أيضا على من تبنّه من الأسرى. وفي ذات السياق أيضا يمكن وضع الروايات التي قد يُفهم منها أن مرونة أبي المهاجر دينار هي التي أقنعتْ كسيلة البربري بالانضمام للمسلمين وأنّ تراجعه عن ذلك ومشاركته في قتل عقبة بن نافع كان بسبب سياسة هذا الأخير المُهينة للبربر[٥١]. وضمن هذا النسق تتدرج الروايات التي تحاول إيجاد خيط رابط بين ملحمة الكاهنة

---

[48] - الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣٥ وما يليها.

[49] - Hannoun, *idem*.

[50] - اعتبر ابن عبد الحكم أن البربر كانوا يعيشون بفلسطين ثم اضطروا إلى الهجرة منها في عهد الملك داود لما انتقلوا إلى المغرب وانتشروا في أرجائه، نفس المصدر، ص ٢٧٩. أما ابن خلدون فقد أرجع البربر إلى أصل كنعاني، كتاب العبر، منشورات محمد علي بيضون، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣، ج ٧، ص ٤٤؛ حـــول الموضـــوع راجع:

Gabriel CAMPS, "L'origine des Berbères, Islam : société et communauté. Anthropologies du Maghreb," sous la direction de Ernest Gellner, *les Cahiers C.R.E.S.M, Éditions CNRS* (Paris, 1981).

[51] - ابن عذاري المراكشي، البيان المغـــرب ؛ Talbi M., "art. Kusayla," *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition (EI^2), Leiden Brill, vol. V, pp. 521-522.

وتجربة كسيلة[٥٢] مع أن ذلك محل نظر بما أن الثاني ينحدر من قبيلة أوربة المنتمية لقبائل البرانس المعدودين ضمن المستقرّين بينما تُنسبُ الكاهنة إلى البتر.

[52]- ذهب ابن عبد الحكم إلى أن كسيلة هو "ابن الكاهنة"، نفس المصدر، ص ٢٦٩.

الخاتمـــــة:

لعل أبرز ما يمكن الوقوف عنده من خلال التمشي السابق هو أنّ الكتابة التاريخية عند المسلمين قد تأثرت بالموروث الثقافي زيادة عن التأثير السياسي والمذهبي، وإن تم ذلك بهدوء. وكان من أبرز تجليات ذلك إدماج معلومات إضافية لربما بقيتْ شفاهية لزمن طويل في المادة التاريخية المتداولة أصلا حول الكاهنة وهذا بغاية إضفاء مُسحة أسطورية على شخصيتها. وكانت النتيجة تداخل المدون عن الحادثة والذي ظلّ هو ذاته شفويا لعشرات السنين قبل تقييده من قبل المؤرخين مع مواد خبرية جديدة أنتجها المخيال الجماعي بغاية محددة وامتزج فيه الواقعي بالأسطوري.

وفي الواقع فقد أعاد البحث التاريخي في العقود الأخيرة الاعتبار للشفاهية والموروث الشفوي كمصدر للدراسات التاريخية: ففي نهاية القرن التاسع عشر استبعدتْ مدرسة التاريخ الوضعي الفرنسية بريادة كل من "فكتور لنغلوا" (Ch. Victor Langlois) و"شارل سينوبوس"(Ch. Seignobos) الرواية الشفاهية عن مصادر المؤرخ الموثوقة في مسعًى منها لكتابة تاريخية علمية على غرار العلوم الصحيحة، غير أنّ هذا الموقف تبدل منذ نهاية سبعينات القرن الفائت بحيث أصبح للتاريخ الشفوي حضور لافتٌ لا في دراسة التاريخ المعاصر فحسب بل وكذلك في الأبحاث حول التاريخ الوسيط والحديث وفي هذا الإطار تجددتْ العناية بكل ما يسمح باستقراء رواسب الذاكرة الفردية أو الجماعية في المصادر[٥٣]. مع ذلك على المؤرخ أن ينتبه إلى المنزلقات التي قد تنجر عن اعتماد الخبر الشفوي كمصدر رئيسي للتاريخ، إذْ يعرف كل المتتبعين لنشأة علم التاريخ عند المسلمين أنّ تحول الشفاهي إلى المكتوب كان إطارا سهلا للتدليس.

في المقابل إن المبالغة في الحذر من الشفوي قد تؤدي إلى نفي القدر الكبر من المصادر التي ترقى إلى العهود القديمة وكذلك العصر الوسيط، لذلك لم تكنْ هذه المشاكل وغيرها غائبة عن ذهن المؤرخين المسلمين ولذا على الباحث أن يأخذ في الحسبان أن

---

[53]- جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، بيروت، منـشورات المنظمـة العربيـة للترجمة، ط١، ٢٠٠٧، ص ٨٢.

المؤرخين العرب في العصور الوسطى لم يدّعوا أصلا بلوغ رواياتهم الوثوقية المطلقة و إنما سعوا إلى ضمان صدق موارد معلوماتهم حسب تعبير عزيز العظمة[٥٤]. وقد تفطن الطبري منذ القرن الثالث إلى ذلك عندما ألقى مسؤولية ما يرد في رواياته من معلومات على مصادره وذلك بتأكيده في مقدمة حولياته أنّ ما " يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لا يعرف له وجها في الصحة، ولا معنًى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُؤتَ في ذلك من قِبلنا وإنما أُتيَ من قِبل بعض ناقليه إلينا؛ وإنما أدّينا ذلك على نحو ما أُدّيَ إلينا".

[54] Aziz Azmeh, "Histoire et narration dans l'historiographie arabe," *Annales Economie, Sociétés et Civilisations*, 41(1986), pp. 411-431.